

الرق في بلاد المغرب والأندلس* (عبد الإله بنمليح)

محمد استيتو

بداية أستغل مناسبة هذا التقديم لأجدد تهنئتي لمؤلف كتاب "الرق في بلاد المغرب والأندلس" على الجائزة¹ التي حظي بها عن جدارة واستحقاق. إنني أعتبر هذا الجمع المبارك احتفاء كريما بصاحب هذا العمل الرصين الذي كنت أدعي وأزعم أنني أعرف عنه كل كبيرة وصغيرة، لأن صاحبه حملني -مشكورا- همه منذ كان مجرد فكرة، وأشركني باستمرار في مختلف خطوات إنجازهِ وتحريرهِ، إلى أن جاء كما هو بين أيدينا اليوم في مستواه وشكله الحالي الجيد، تماما كما كنت قد حملته بدوري هم البحث الذي كنت أنجزه² في تلك الفترة ذاتها، فكان نعم الرفيق النصوح، والمرشد المعول عليه، ولكنني عندما قرأت العمل بدا غريبا عني بحكم ما انتهى إليه صاحبه من صنعة بديعة، وحكمة متقنة، ولنجاحه الكبير في لمّ ما يصعب لمّهُ، وجمع ما يعسر جمعه من شتات موضوع يشق على العقل والفهم تطويعه، وهذا ليس غريبا عن المؤلف الذي لم يجعل من الموضوع مجرد قضية للبحث فقط، بل وأيضا رهانا للتحدي وقد ربح الرهان، لأنه لم يكن مقبولا ولا مستساغا أن يخسره، لأن اختياره لهذا الموضوع واهتمامه به كان ذاتيا، وقناعة مسبقة بدراسته، كما أفصح عن ذلك في مقدمة الأطروحة، حيث قال: "ينبع اختيارنا البحث في موضوع الرق في بلاد المغرب والأندلس، من اهتمام ذاتي بفئة اجتماعية استضعفت في الأرض..."³ ومن هنا يستمد هذا العمل قيمته وقوة الإرادة التي تحملها صاحبه بالرغم من المعاناة والآلام التي عانى منها في بعض الفترات العويصة بسبب المرض، عافاه الله.

* الكتاب في الأصل أطروحة جامعية لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب، ظهر المهرز، فاس، بتاريخ 2000/6/23، وصدرت طبعته الأولى عن دار الانتشار العربي، بيروت، 2004، وتقع في 631 صفحة.

¹ - جائزة المغرب للكتاب لسنة 2005.

² - نقصد أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في موضوع: الفقر والفقراء في المغرب القرنين 16 و17م، وقد صدرت بدعم من وزارة الثقافة، ط. 1، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، 2004.

³ - الرق في بلاد المغرب...، م. س.، ص. 9.

لقد انطلق الباحث من فكرة بسيطة، تُختزل في كلمات قليلة، خفيفة على اللسان، لكنها ثقيلة في الميزان، وتحديدًا في فكرتين مركزيّتين، هما: سر غياب صوت العبيد أو الحديث عنهم في كتابات الأقدمين المختلفة⁴، ثم "غياب البحث في موضوع الرق المغربي، خاصة خلال العصر الوسيط، غيابًا يكاد يكون تامًا..."⁵، وذلك بالرغم من الأدوار الكثيرة التي اضطلع بها هؤلاء أو كانوا يُكرهون على القيام بها لفائدة أسيادهم أو لفائدة المجتمع؛ إنه إذن تنكّر من المؤرخين والإخباريين السابقين لهؤلاء الذين نعتهم الباحث بالمستضعفين في الأرض⁶، والذين خضعوا "للتمييز"⁷، وتعرضوا لـ"التهميش"⁸، وعانوا من "الدونية"⁹، والذين كانوا يُحشرون ضمن لائحة الممتلكات المنقولة والسلع، بين الدواب والأنعام وما قل ثمنه منها وما ارتفع، بل واعتُبروا "أشياء"، و"بضاعة"، و"حيوانات"، فكانوا يُحصون على أساس عدد الرؤوس وليس بحسب عدد الأنفس.¹⁰

لقد نذر الباحث نفسه لـ"إنصاف" هؤلاء العبيد، وتحقيق له ذلك بفضل نجاحه الكبير في إسماع "صوتهم"، بل أكثر من ذلك أنه نجح أيضًا في أن يمزج في مخيلة القارئ "صوت" تلك الفئات المنسية بشرط صورها، وذلك من شدة تأكيده على "شكاوى" أصوات أبنائها و"تظلمهم"، وتركيزه على هياتهم، وإبرازه للصور المختلفة التي التقطها لهم من المصادر المتنوعة.¹¹

إن هذا العمل، الذي يتناول ظاهرة "الرق في بلاد المغرب والأندلس خلال القرنين 5-

6 هـ/11-12م"¹²، هو من نوع الأعمال القليلة جدا التي يقبل المرء على قراءتها فلا يكل ولا

4 - م. ن.، ص. 45 و55-57 وهنا وهناك.

5 - م. ن.، ص. 11.

6 - م. ن.، ص. 7.

7 - حدث "التمييز" على مستويين: بين الأحرار والرقيق، من جهة (م. ن.، ص. 427، 428)، وبين الرقيق أنفسهم، من جهة ثانية، وقد تم "التمييز" بينهم على أساس الجنس والموطن واللون وغير ذلك من المعايير التي انبنت عليها أفكار تراتبية الرقيق، والتي كان من بين نتائجها مثلا عدم المساواة بين الرقيق الأبيض ونظيره الأسمر والأسود في نوع الخصاء وطريقته. راجع: م. ن.، ص. 200، 201، 373، 414، 422، 423...

8 - يتجلى هذا "التهميش" على مستوى "إهمال" المؤرخين والإخباريين وغيرهم الحديث عن الرقيق والاهتمام بأخبارهم، وأيضا على المستوى الاجتماعي. راجع مثلا: م. ن.، ص. 10، 88، 98...

9 - راجع مثلا: م. ن.، ص. 58، 263، 264، 343، 353، 427، 428، 430، وهنا وهناك.

10 - راجع: القسم الثاني، المبحث الأول: صورة الرقيق ووضعيته من خلال الأدبيات الفقهية، م. ن.، ص. 263 وما بعدها وهنا وهناك.

11 - راجع فصول البحث المختلفة.

12 - هذا هو العنوان الكامل والأصلي للأطروحة.

يمل، وهو من الأعمال المفتوحة، التي لا تتقعد على بداية ولا على نهاية محددين، لأنه يتناول ظاهرة إنسانية تتميز بأنها عامة وموغة في القدم، وبأنها استمرت، في المغرب، بعد القرنين 5 و6 هـ/11-12م، لقرون طويلة وإلى غاية العقود الأولى من القرن 20م تقريبا، ثم إن خصوصيات الزمان والمكان في هذا البحث تكاد تكون محدودة، وهي المبتغى منه، لذلك وجدت نفسي أبحث عن تلك البدايات السابقة لفترة البحث فلم أجدها، وبحثت عن مخلفات الموضوع في ما لحق من القرون فخاب ظني، وهذا لأن الفترة موضوع الدراسة إنما هي مجرد محطة أو حلقة في سلسلة طويلة من الحلقات، التي تتأسس على بعضها البعض، لذلك يصعب دراسة أي منها أو النظر إليها بمعزل عن مستوياتها العمودية أو الأفقية.

ولكن الباحث هيا كل شروط البحث في الموضوع من الفتح الإسلامي إلى الفترة الزمنية المدروسة، ثم ما بعد تلك الفترة، وذلك من خلال البليوغرافيا الغنية والمتنوعة جدا والتي تغطي قرونا عديدة، حتى إن ذ. محمد ياسر الهلالي⁽¹³⁾ خلص من قراءة سابقة في هذا العمل إلى أن نسبة المادة العلمية الخارجة فيه عن فترة البحث تكاد تعادل تلك التي تتعلق بالفترة المدروسة، وهذه نسبة مهمة كثيرا.

ولهذا يمكن القول إن الباحث مهد الطريق بذلك لكل من يريد أن يتابع البحث في موضوع الرق في المغرب الإسلامي، سواء قبل القرنين 5 و6 هـ/11 و12م أم بعدهما، ودلل أكثر صعوباته ومشاقه، وهذه لعمري من فوائد هذا العمل المتميز المفتوح، والغني بمظانه المتنوعة.

ومن حسنات هذا العمل أيضا أن صاحبه تجاوز فيه الكثير من المشاكل والعديد من الصعوبات التي هيمنت عليه منذ البداية، لأنه كما قال د. محمود إسماعيل عبد الرازق في "تقديم" الكتاب: إنه "جد هام ومعقد في آن. ذلك أن التأريخ لظاهرة الرق في المجتمعات الإسلامية الوسيطية ظل محفوقا بالمحاذير والإكراهات المنظورة وغير المنظورة؛ خصوصا

¹³ - خلص الباحث إلى أن نسبة الإشارات والإحالات التي تهم الفترة المدروسة (ق. 5 و6 هـ/11-12م) تمثل 47 %، وتمثل نسبة الإشارات والإحالات السابقة واللاحقة للفترة 40 %، منها 30 % تهم الفترة ما قبل القرن 5 هـ، وأما نسبة 13 % المتبقية فإنها تمثل ما أسماه بـ"ما ينبغي أن يكون". راجع: "قراءة في أطروحة الأستاذ عبد الإله بلمليح حول: الرق في بلاد المغرب والأندلس خلال القرنين 5-6 هـ/11-12م"، ساهم بها في القراءة التي نظمتها شعبة التاريخ بكلية الآداب، سايس غاس-، لهذه الأطروحة بتاريخ 2001/3/13، (مرفونة) وقد أهدانا صاحبها - مشكورا - نسخة منها.

ما يتعلق منها بموقف الإسلام من الرق، كذا الاختلاف البين بين الرؤية الإسلامية النظرية وبين الواقع التاريخي العياني.¹⁴

"وقد أفضى هذا التناقض -وانعكس في ذات الوقت-، -يضيف صاحب التقديم- على الإطار المرجعي للموضوع، فتحت تأثير الدين تباينت وتعددت الاختلافات الفقهية واختلطت، بحيث أصبح من المتعذر تقرير موقف موحد عند الفقهاء. كما اختلفت النظم الإسلامية بدورها -حسب معطيات الزمان والمكان- في ترسيخ مفهوم واحد وثابت يمكن الاقتداء به والتأسيس عليه. فإذا أضيف إلى ذلك إجماع المؤرخين عن التأريخ للجوانب الاجتماعية عموماً، وعن الرق خصوصاً، أدر كنا صعوبة مقارنة الموضوع وبحثه ودرسه.¹⁵

هذه بعض من المحاذير والعقبات، التي أكدها محمود إسماعيل، والتي جعلته يصف الموضوع بالموضوع "الملغز والمعقد"¹⁶. ولكن وبالرغم من ذلك فإن تلك المشاكل لم تفت في عزيمة الباحث، بل إنه تحداها حتى "وُفق في تجاوز تلك الإشكاليات جميعها ونجح في تقديم تصور أولي واضح ومحقق في آن. وما كان بوسعه أن ينجز ما أنجز دون التعويل على الإفادة من مناهج عدة وظف كلا منها - ببراعة وصرامة- في الحقل المعرفي المناسب". والكلام هنا أيضاً لمحمود إسماعيل.¹⁷

إنها إذن بحق لصعوبات شائكة للغاية، ولكن أهم الصعوبات التي تلمس من خلال قراءة العمل وأبرزها هي تلك التي تبدو في غلبة الجانب الأخلاقي لتصور الباحث للموضوع ولصياغة أفكاره ومباحثه وفصوله، لاسيما وأنه انطلق في البحث فيه من منطلق ذاتي، كما سلف¹⁸، لذلك لم يأخذ الموضوع استقلاليته الكافية عن ذات الباحث، كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل¹⁹، حين أوضحنا استخدام المؤلف لمصطلحات تنم عن أحكام قيمة "غير محايدة"، مثل: المستضعفين و"التمييز"، و"التهميش" و"الدونية"، وما شابه ذلك من الألفاظ

¹⁴ - الرق في المغرب...، م. س.، ص. 7.

¹⁵ - المكان نفسه.

¹⁶ - المكان نفسه.

¹⁷ - المكان نفسه.

¹⁸ - راجع الإحالة أعلاه، رقم 3.

¹⁹ - راجع الإحالات أعلاه، من 6 إلى 9.

والمصطلحات²⁰ التي يعج بها البحث، والتي يفهم منها صراحة مساندة الباحث و"تموقعه" بجانب فئات العبيد، ووقوفه في الاتجاه المعاكس للكثير من آراء واجتهادات الفقهاء الذين أثبت "تحيزهم" في العديد من المواقف للأسياد على حساب عبيدهم وإمائهم ومواليهم²¹، وعلى حساب فكرة الاسترقاق في حد ذاتها، لاسيما التي كانت تعتقها بعض الدول المغربية، التي كانت تلجأ أحيانا إلى "التلويح بالدين لتسويق الاسترقاق" سياسيا، كما فعلت الدولة الموحدية على سبيل المثال.²² ومعلوم أن مواقف هؤلاء الفقهاء والمنظرين لسياسة الدول قد تكون نابعة من ذواتهم بحكم أنهم أحرار ومالكون لعبيد، وهو ما يعني أنهم كانوا يغلبون النوازع الذاتية والشخصية لتحقيق مصالح خاصة أو عامة، أو للمحافظة على تلك المصالح، حتى وإن خالف ذلك أحيانا منطوق الشرع أو مراميه ومقاصده.²³

وبذلك يبدو وكأن المؤلف نحا في عمله منحى البحث عن سبل تضمن قدرا من التوازن في الموضوع بين ذاتية الأسياد، التي كانت تجد من يعبر عنها ويرعى مصلحتها من بين الفقهاء والعلماء ومنظري السلطة، وبين ذاتية العبيد التي تولى الباحث نفسه التعبير عنها لغياب الصوت المعبر عنها في المصادر أو لخفوته. وكل هذا يجعل معالجة الموضوع أخلاقية بامتياز قبل أن تكون اجتماعية أو تاريخية أو ما إلى ذلك.

فهل من حق الباحث أن يميل كل الميل أو بعضه أو قليلا منه لفئات العبيد/الرقيق التي نذر نفسه للدفاع عنها أملا في إحداث هذا التوازن المفقود بين كفتي الجانبين؟ نعتقد أنه لا ضير في ذلك إنما مع الاعتدال الذي ينشد تحقيق نوع من التوازن مع

²⁰ - حرص المؤلف مثلا على استعمال نعوت وأوصاف، منها: "احتقار وإهانة" (م. ن.، ص. 209)، أو: "انصراف الرقيق إلى أعمال مرهقة وأخرى وضعية" (م. ن.، ص. 354 و356 و357، وهنا وهناك)، وما شابه ذلك.

²¹ - كما هو الحال مثلا في مسألة التفریق بين المملوكة وظفها في بعض المناسبات. (راجع: م. ن.، ص. 274. وقد ناقش المؤلف كذلك، في مسألة الإباق، قضية الصراع حول ما إذا كان الرقيق ملكية مطلقة أو نسبية، فقال: "... أن الغلبة كانت -بدعم فقهي واضح- لصالح السادة والملكية المطلقة، التي كانت نفسها وراء إباق الرقيق." وأضاف: "ودعا الفقهاء إلى عدم إيواء الرقيق الأبق، وعدم تقديم العون له، إمعانا في التضيق عليه، وإرغامه على الرجوع إلى صاحبه." (م. ن.، ص. 300، وانظر هنا وهناك).

²² - م. ن.، ص. 144. وقد أكد الباحث أن المرابطين أيضا غلغوا الحروب التي خاضوها ضد البرغواطيين بغلاف ديني وأعطوها صبغة "جهادية" حتى تستمد الشرعية من مرجعية مسوغة شرعا، وذلك للحصول على رقيق. (م. ن.، ص. 137). وقد اعتمد الموحدون من جهتهم "المسوغ الشرعي" نفسه تقريبا لسبي المرابطين وأتباعهم ومناصريهم. (راجع: م. ن.، ص. 138 وما بعدها)، وهكذا بين الحكام والمعارضة...

²³ - راجع على سبيل المثال بعض ما أورده الباحث في كتابه بخصوص تشجيع الإسلام على عتق العبيد، م. ن.، ص. 302-316، وهنا وهناك.

المصادر التي نعلم أنها ليست دائماً موضوعية ولا مستقلة، ثم إنه لا بأس من شحن الموضوع، في بعض جوانبه أحياناً، بشحنات ذاتية لإبراز فاعلية الحركية وقانون الدفاع الذي يوجب حركة التاريخ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: (ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)²⁴ وفي كل الأحوال، هل التاريخ محايد؟

وعلى العموم فإن قراءتنا لهذا العمل جعلتنا مشدودين إليه أكثر نظراً، من جهة، للإفادة الكبيرة التي جنيناها منه، ومن جهة أخرى، لجملة من الأفكار التي أثارها الباحث، سواء منها التي عرضها على أنظار الباحثين والمهتمين من أجل دراستها والتعمق فيها²⁵، أم التي تضمنها البحث في ثناياه من غير حسم فيها أو فصل، والتي نرى أنها تستحق أن يُسلط عليها الضوء أكثر وأن تكون مباحث لأعمال أخرى عديدة، تتطلب الجراءة والصبر والأناة وغير ذلك من الموصفات التي يُحتذى بها الباحث هنا؛ وكل هذا يؤكد مدى خصوبة الموضوع وثرأه. ونورد من بين تلك الأفكار الآتي:

- لقد أكد الباحث في مطلع الفصل الثاني من الكتاب²⁶ أن الاسترقاق الناتج عن الأسر يعتبر، بشكل عام، حالة غير طبيعية من ناحية، وحالة عرضية من ناحية أخرى، وذلك استناداً إلى قولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه- المشهورة، التي جاء فيها: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً." لكن وبالرغم من ذلك فإن الاسترقاق في بلاد إسلامية كالمغرب والأندلس، نتيجة للحروب، أحدث مشكلة أخلاقية وإنسانية حقيقية غير مفهومة، ومتعارضة مع الخطاب الديني. فلا الدين حرم الرق بنص صريح ولا المجتمع خضع لتعاليمه الرامية إلى التشجيع على عتقه. وتزداد حدة المشكلة الأخلاقية عندما يتعلق الأمر باسترقاق المسلم للمسلم والسلطة الإسلامية للرعايا من المسلمين. وقد أوضح المؤلف، بخصوص هذه القضية، أن جمهور الفقهاء، بالرغم من أنه نظر إلى الأسير المسلم نظرة الحرية، ورأى أن لا سبيل إلى استرقاقه، فهو حر أسير، "غير أنه لم يلتفت في الغالب إلى هذه القاعدة الفقهية في خضم الحروب والمطاحنات، وفي سبيل تحقيق طموحات

²⁴ - سورة البقرة، الآية 251.

²⁵ - انظر، مثلاً، بعض ما اقترحه الباحث من مواضيع، أو ما سماه بالأفاق الجديدة للبحث، في أواخر الخاتمة العامة للكتاب، المغرب والرق، م. س. ص. 555-556، أو في بعض خلاصات الأقسام والفصول.

²⁶ - م. ن. ص. 127.

- لقد أشار الباحث إلى أن الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب والأندلس تمت على خلفية كثرة السبي الذي تحقق للمسلمين في مصر وأطراف إفريقية في عهد الخليفة عثمان خاصة، حيث قال: "... وكان ذلك وراء تطلع الإدارة العربية في مصر والخلافة في الحجاز إلى فتح بلاد المغرب." 28 وقال أيضا بخصوص أول اتصال للمسلمين بالأندلس عبر سرية طريف في رمضان 91 هـ/710م، والتي أصابوا منها سبيا ومالا كثيرا: "وربما كان ذلك مما حفز على تجهيز جيوش طارق بن زياد وتوجيهها نحو الأندلس." 29

- وردت، ضمن روافد الرقيق، عدة روايات بشأن كثرة السبي والرقيق المحلي في الفترات المضطربة وفترات انتقال السلطة من دولة إلى أخرى، حتى لقد بدا من خلالها وكأن الإنسان لا يمكن أن يكون إلا أسرا أو مأسورا، ولكن خارج هذه النقطة فالموضوع كله تقريبا إنما يتناول الرقيق الأجنبي، ولا سيما السوداني والصقلي. 30 ولذا فإن شح الأخبار عن تلك الأعداد التي لا تحصى من الرقيق المحلي بعد الاضطرابات أو انعدامها قد لا يكون أكثر من مبالغة لا يعتد بها. وإلا أين كان يتم تصريفها؟

- استشهد الباحث، دون تحفظ أحيانا، بروايات تاريخية مهمة وردت بها أرقام مفصلة عن أعداد العبيد تثير بعض الاستغراب والشك في الآن نفسه 31، علما أن مشكلة الأعداد تعد من أعقد المشاكل التي تواجه الباحثين في تاريخ البلاد الإسلامية عموما، سواء تعلق الأمر بأعداد السكان والمساكن، أم بأعداد الجيوش والمحاربين والخسائر البشرية في المعارك، أم بأعداد الحرف والصناعات وبأعداد المتعاطين لها، أم بأعداد ضحايا الكوارث... ولذا فإن تلك الروايات تبقى في حاجة إلى تدقيق وتمحيص ومراجعة لنزع طابع المبالغة عنها، والذي يُستشف، بالنسبة للرقيق السوداني المطلوب إلى المغرب، على سبيل المثال، ليس فقط من

27 - م. ن.، ص. 132. ويمكن الوقوف على صورة دقيقة لهذه المسألة في الفصلين الأول والثاني من القسم الأول بصفة خاصة.

28 - م. ن.، ص. 70.

29 - م. ن.، ص. 78.

30 - راجع القسم الأول خاصة.

31 - انظر بعض النماذج، مثلا، في المبحث الأول من الفصل الأول من القسم الأول من الكتاب، م. ن.، ص. 70 وما بعدها. ومن بين ما جاء في هذا الباب، مثلا، أن عقبة بن نافع أحرز من بلاد المغرب ثمانين ألف رأس (كذا). (م. ن.، ص. 72.) واجتمع لحسان بن النعمان خمسة وثلاثون ألف رأس. م. ن.، ص. 73، وهنا وهناك.

تضارب الآراء بين الباحثين الذين ناقشوا تلك الروايات وخلصوا إلى أرقام متضاربة ومتباعدة كثيراً، وإنما لأن الرق، كما خلص الباحث إلى ذلك³²، كان مدينياً بالأساس للحاجة إليه في المنازل، وكان مقتصرًا فيها على الأسر الميسورة القادرة على اقتنائه، بوجه خاص، نظراً لارتفاع سعره وكثرة الإنفاق عليه³³؛ ومعلوم أن نسبة سكان المدن كانت لا شك قليلة جداً، وكذلك نسبة الميسورين بها، ثم إن البنى الاقتصادية نفسها لم تكن قائمة على الرق³⁴. ولذا فإن عدد الرقيق الوافد من بلاد السودان لم يكن يتجاوز بضع مئات سنوياً، وهو ما ذهب إليه عبد العزيز العلوي³⁵. أما القول بأرقام تصل في الحد الأدنى إلى 20.000 سنوياً، الذي قال به (MAUNY) فهو لا شك مرفوض، وهو - كما قال الباحث - ينطوي على مبالغة واضحة³⁶، ونضيف بأن الخريطة الإثنية للمغاربة تكذب هذا الادعاء إلى اليوم. لكل ذلك إذن نقول إن الرق كان واقعاً اجتماعياً لا شك فيه، ولكن حضوره في الواقع مبالغ فيه كثيراً جداً، لأنه لم يكن حاجة اجتماعية عامة إلا في نطاق ضيق جداً، وأما كثرته فكانت بحسب المناسبات والظروف السياسية بوجه خاص.

- يقسم المؤلف المجتمع إلى أحرار وأرقاء، وينقسم الرقيق بدوره إلى مراتب تتراوح بين الرفيع في الأعلى والوخش في الأسفل، ويجد الواحد من الرقيق نفسه في إحدى هذه المراتب إما لموهبة يتوفر عليها، أو لمزية فضل خلقية أو خلقية يتميز بها، من صفات الجمال أو القوة والشجاعة أو ما إلى ذلك. كما أن الرقيق درجات في سلم الحرية، فمنه المسترق كله ومنه المسترق نصفه أو ثلثه أو بعضه، أي ما قد يسمى العبد/الحر أو الحر/العبد، ومنه المكاتب لأجل، وأم الولد، التي قد تكون زوجة خليفة أو أمه، والعبد المالك لعبيد وإماء، وهناك من يُسترق بالقوة والغصب، وهناك من يبيعه أهله أو يبيع نفسه لغيره للنجاة بها من الهلاك، لاسيما زمن المجاعات أو الحروب... وهكذا مما يستشف منه أن العبودية نسبية كالحرية، وقد تتكرس هذه النظرة أكثر مع البحث في طبيعة العلاقة بين

32 - انظر الخاتمة العامة، م. ن، ص. 554.

33 - المكان نفسه.

34 - م. ن، ص. 363.

35 - م. ن، ص. 252.

36 - المكان نفسه.

وضعية الفئات الاجتماعية الدنيا داخل القبائل وبين زعمائها من شيوخ وقواد وغيرهم، أو بين المريدين وشيوخهم، أو داخل مكونات الأسرة، ولاسيما بين المرأة والرجال المحيطين بها، آباء أو أزواجاً أو إخوة، وهو الأمر الذي يعني أن الحرية نسبية، وإن كانت الناحية القانونية -العقد- شيئاً آخر.

وكيفما كان الحال فإن الباحث شدد كثيراً على معاناة الرقيق من ظروف العمل القاسية ومن سوء معاملتهم من أسيادهم، والتي كان من مظاهرها الإبقاء، والقضية هنا، كما بدا لنا من خلاصتنا، هي أن الإبقاء لم يكن فراراً من "الوضعية القانونية" التي يكون عليها المسترق ولكن فراراً من المعاناة³⁷، ولهذا فإن هذه القضية قد تنسف نظرتنا إلى وضعية الرق من الناحية الأخلاقية من أساسها. وعلى أي فإن الباحث عندما تحدث عن الإبقاء لم يخف انزعاجه من سكوت المصادر عن هذه "الظاهرة"، وحار في سبب تفسير هذا الغياب، ولم يجد ما يستند إليه لإبرازها -كما قال- إلا "تسجيل حالات تفصح عن كون الإبقاء نتيجة مباشرة لمعاملة تقوم على العنف الممارس ضد الرقيق".³⁸

ولذلك فإن الباحث عندما تساءل -كما فعل غيره من قبله- عن سر عدم حدوث ثورات للرقيق، بالرغم من كل المعاناة³⁹ لم يجد عند من تناول هذه القضية من الأجوبة أو التفسيرات المقنعة ما يجعل من هذا التساؤل تساؤلاً مشروعاً أصلاً. فهناك من أرجع ذلك لانعزال العبيد في المنازل وعدم تكتلهم في عمليات الإنتاج، أو لعدم توفر أسباب تلك الثورات بسبب غياب توظيف العبيد في العمل الزراعي على نطاق واسع واقتصار حضورهم على الخدمة في البيوت والبلاطات مما جعل تكتلهم أمراً مستحيلاً⁴⁰...

وهكذا يلاحظ أن الذي حال دون "ثورة" للعبيد أو هباتهم إنما هو عدم تكتلهم للأسباب المذكورة. وفي كل الأحوال فإن العبيد لم يكونوا فقط غير متكتلين وإنما كانوا كذلك مراتب ودرجات، منهم المستفيد كثيراً من وضعيته، ومنهم غير ذلك، ومنهم من كانت أحواله تتراوح بين هذا وذاك، بحسب الظروف المحيطة بعملية انتقاله من وسط اجتماعي لآخر.

³⁷ - انظر ما خصصه الباحث لهذا الموضوع في: م. ن.، ص. 440-444، وهنا وهناك.

³⁸ - م. ن.، ص. 441-440.

³⁹ - م. ن.، ص. 547.

⁴⁰ - م. ن.، ص. 547-549..

والواقع أن حصول التكتل أو عدم حصوله لا يمكن أن يكون وحده سبيلا ولا مبررا إلى الثورة وإلا فإن القبائل كانت متكثلة، والعمال في المصانع منذ حدوث الثورة الصناعية كانوا متكثلين، والطلبة في أنحاء العالم متكثلون... ولكن تكتل كل هؤلاء لم يدعهم إلى الثورة، لأنه لا ثورة لمجرد الثورة.

وبذلك يتأكد أن التساؤل عن سر غياب ثورة العبيد غير مشروع، أو هو تساؤل عن شيء يتمنى المرء أن يحدث لسبب ما، ولو لم يكن له مبرر، وهو ما يعني اعتماد فكرة ما ينبغي أن يكون وذلك بناء على قياسات معينة.

إن هذا الأمر قد يوضح أن الفكرة القائمة على الإساءة إلى العبيد فكرة حقيقية لا شك في ذلك، لكنها تقوم على التعميم والمبالغة، على ما يبدو، تماما كما أعداد العبيد في المجتمع، وإلا هل ألغى الموالى الرق وتجارته وأخلوا أسواقه عندما تربعوا على هرم السلطة ودانت لهم الرقاب؟ بل هل تبرا أحد منهم من اسم المولى الذي حملة⁴¹؟ وهل كان للعلماء من الرقيق رأي مخالف لرأي العلماء الأحرار من الرق! لم يثبت هذا في علمنا.

محمد استيتو
كلية الآداب، وجدة

⁴¹ - راجع المبحث الذي خصصه الباحث لـ: الرقيق والوصول إلى السلطة، م. ن، ص. 529- وما بعدها.